

تفسير ابن كثير

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

لما ذكرهم [الله] تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم
القيامة فقال : (واتقوا يوماً) يعني يوم القيامة (لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) أي : لا
يعني أحد عن أحد كما قال : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام : 164] ، وقال : (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) [عبس : 37] ، وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم
واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) [لقمان : 33] ،
فهذه أبلغ المقامات : أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ، وقوله
تعالى : (ولا يقبل منها شفاعاة) يعني عن الكافرين ، كما قال : (فما تنفعهم شفاعاة
الشافعين) [المدثر : 48] ، وكما قال عن أهل النار : (فما لنا من شافعين ولا صديق
حميم) [الشعراء : 110 ، 111] ، وقوله : (ولا يؤخذ منها عدل) أي : لا يقبل منها
فداء ، كما قال تعالى : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء

الأرض ذهباً ولو افتدى به) [آل عمران : 91] وقال : (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) [المائدة : 36] وقال تعالى : (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) [الأنعام : 70] ، وقال : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) الآية [الحديد : 15] ، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، ولو بماء الأرض ذهباً ، كما قال تعالى : (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) [البقرة : 254] ، وقال (لا بيع فيه ولا خلة) [إبراهيم : 31] . وقال سنيد : حدثني حجاج ، حدثني ابن جريج ، قال : قال مجاهد : قال ابن عباس : (ولا يؤخذ منها عدل) قال : بدل ، والبدل : الفدية ، وقال السدي : أما عدل فيعدلها من العذاب يقول : لو جاءت بماء الأرض ذهباً تفتدي به ما تقبل منها ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، [. وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، في قوله : (ولا يؤخذ منها عدل) يعني : فداء . قال ابن أبي حاتم : وروي عن أبي مالك ،

والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، نحو ذلك . وقال عبد الرزاق :
أنبأنا الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه عن علي - رضي الله عنه -
في حديث طويل ، قال : والصرف والعدل : التطوع والفريضة . وكذا قال الوليد بن مسلم ،
عن عثمان بن أبي العاتكة ، عن عمير بن هانئ . وهذا القول غريب هنا ، والقول الأول
أظهر في تفسير هذه الآية ، وقد ورد حديث يقويه ، وهو ما قال ابن جرير : حدثني نجيع
بن إبراهيم ، حدثنا علي بن حكيم ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عمرو
بن قيس الملائي ، عن رجل من بني أمية - من أهل الشام أحسن عليه الشاء - قال : قيل
: يا رسول الله ، ما العدل ؟ قال : العدل الفدية . وقوله تعالى : (ولا هم ينصرون) أي :
ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يعطف
عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء . هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم
ناصر من أنفسهم ، ولا من غيرهم ، كما قال : (فما له من قوة ولا ناصر) [الطارق :
10] أي : إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا ينقذ أحدا من عذابه
منقذ ، ولا يجيره منه أحد ، كما قال تعالى : (وهو يجير ولا يجار عليه) [المؤمنون :

[88] . وقال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) [الفجر : 25 ، 26] ،
وقال (ما لكم لا تنصرون بل هم اليوم مستسلمون) [الصافات : 25 ، 26] ، وقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم) الآية [الأحقاف : 28]
[وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله : (ما لكم لا تنصرون) ما لكم اليوم لا تمانعون
منا ؟ هيهات ليس ذلك لكم اليوم . قال ابن جرير : وتأويل قوله : (ولا هم ينصرون) يعني
: إنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ،
بطلت هنالك المحابة واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ،
وصار الحكم إلى عدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها
وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى : (وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تنصرون بل
هم اليوم مستسلمون) [الصافات : 24 ، 26]